يشغل الناس من أصدقائه وأعدائه ، أولئك لا يفرغون من ذكره بالخير وهؤلاء لا يفرغون من ذكره بالخوف . وابن نباتة السعدى امتدح سيف الدولة كذلك فرآه كريماً يبذل مهجته فى سبيل غيره ، ويعلم الدهر فضيلة الكرم والخلق الجميل . وكثير من الشعراء التفوا حول هذا الأمير يتنافسون فى مديحه واختراع الصور الجليلة فى وصفه ، فجعله الوأواء الدمشقى يلبس الأيام ثوب شبيبة بعد أن شابت ، ووضع المنايا تحت ظل سيوفه ، ورسمه بأنه كعبة الآمال وسيد الشجعان ، يلبس الدروع كالغلائل ، ويركب الموت كما يركب الخيل ، ويلخص القول فيه :

أمـانٌ لمرتاع وروع لآمن وكهف لمطلوب وحربٌ لغالبِ

٤

وظل هذا المديح المتكسب يتقلب على العصور الإسلامية منذ العصر العباسى ، فيزداد عكوفاً على الصور التقليدية ، ويردد ما قيل من قبل ، ويعيد على المسامع ما قاله هؤلاء الفحول لأنهم بلغوا ذروة المديح ، ولا بدّ من انحدار بعد هذا العلوّ الشاهق ، فأصبح الشعراء فى محيط ضيق من المعانى وعدد محدود من الصور ومعجم مرسوم من الألفاظ والتراكيب ، كأنّ الخيال قد بلغ النهاية ، فليس للشعراء أن يضيفوا فى مديحهم للملوك إلا ما يقع فى الندرة بعد الندرة من فكرة طارئة وحادثة طارقة ، فالدول تخوض المعارك والأعداء فى ازدياد ، والغزوات كانت من الروم فأصبحت تفد من أوربة ، تحمل الدمار والنار إلى قلب البلاد الإسلامية ، فنهض المداحون للمعانى الباسلة والصفات الفاضلة يلصقونها بملوكهم ، فهم فى جهاد وقتال ، والملوك قواد الجيوش ووزراء الدفاع ؛ وهم قطب الرحى فى المعارك ؛ عليهم يتوقف النصر ومن أيديهم تسيل الأموال . واستوى فى هذه الصور شعراء المشرق والمغرب فأولئك وهؤلاء كانوا يرون الأعداء